أرجوحة

.. شدُّوني من الأرجوحة شدَّاً وقالوا لي هذا عريسك..! ألبسوني نعلاً عالياً.. رحت أتدرَّب على المشي به، حشوا نهديَّ حشواً، ملؤوا يديَّ وصدري بالذهب، أجلسوني على الكرسي وأناروا الأضواء.. أضواء كثيرة صارخة، صرت مثل دميتي.. جميلة وملوَّنة، كان الصخب عالياً من حولي، أصوات وزغاريد.. طبل ومزامير.. الكل يرقص وأنا أحنُّ إلى فراشي الدافئ، لمَ كل هذا السهر..؟ أريد أن أنام باكراً كي أنمو وأكبر.. كي أذهب إلى مدرستي بنشاط، وأشارك في الدروس بكل حيوية وذكاء.

أصواتهنَّ ترنُّ في أذني.. " ما أجملها..!" " بل قولي.. ما أصغرها..!"" يريد أن يربِّيها على يديه.."

وأتساءل لماذا لا يربِّيني أمي وأبي..؟! يسألن أمي : هل حاضت أم لم تحض بعد..؟ ويسردن الحكايا عن فلانات حضن بعد زفافهنَّ بعام أو عامين.. نعم.. لست أولاهن.. وليتني كنت أخراهنَّ.

أدخلوني الغرفة معه والزغاريد تهدهد خوفي، غمزاتهن وهمساتهن التي لم أعِ منها شيئاً زادت من اضطرابي، أقفل الباب.. تأملني بطريقة لم أكن أفهمها.. لكنني حينها فهمت كيف يستطيع الخوف أن يعجز أمام مداركي.. فقد كان إحساسي أكبر وأعظم من الخوف نفسه.

هناك من يشدُّني ويمطُّني كي أكبر رغماً عني، هناك من يسرق مني أعواماً هي لي.. هي من حقي.. حقي أنا.. ومن أنا..؟ ما تعوَّدت أن أسأل..!

أسدل عني الشال بنهم، كانت كل ذرة فيَّ ترتجف، مع أن خالاتي وبناتهن حكيْنَ لي عن ليلة زفافهن، كن يضحكن باستحياء، هذه وسيلتنا التعليمية الوحيدة التي تُطرح أمام فتيات العائلة قبيل زفافهن، أما الأم فتتنحى جانباً في هذه الأمور خجلاً وترفُّعاً..!!

رأى في عيني جهلاً استثار معرفته، قال لي : تعالي نلعب لعبة عروس وعريس.

كان حيائي يؤجج نهمه، لعب معي اللعبة على أصولها.. تلك الأصول التي يعرفها الكبار، عندما أصبح النهار.. طالبني أن أكون مثل أمه ذات الستين عاماً والتي أنجبت اثني عشر ولداً، أن أطبخ بنَفسها، وأنقطع عن العالم مثلها، وأخطو على الخطوات ذاتها التي مرت بها طيلة حياتها، كل ما يجري في يومنا من

أحداث كان يسقطه على مسطرة حياتها، فهي أنموذج يُحتذى للمرأة المخدَّرة في أوساطنا المحلِّية " المرأة عندنا لا تفعل كذا..." "أمي إن حدث ذا تعمل كذا.." فإن خرجت عن الخط المرسوم لي قيد أنملة كان يعيد توجيهي بأساليب عدَّة.. كان يقظاً جداً.. وكأنه فعلاً حمل على عاتقه همَّ تربيتي، فبثُّ شغله الشاغل ليدرس جميع خطواتي وينقِّب عن كوامن الدوافع التي دفعتني لأخطوها، لذا.. كان عليَّ أن أبقى حذرة طوال الوقت.. كيلا يبدر مني أي تصرُّف قد يُفهم على غير معنى، فيخرجني عن إطار المرأة الشريفة العفيفة، ذاك الإطار الذي صنعه الرجل بمفهومه الخاص البعيد كل البعد عن التشريع الإلهي.

وعندما يأتي الليل.. أعود تلك الطفلة المغفَّلة عن كل شيء، كم كان يتلذذ بغفلتي.. فهي تنشي رجولته وتجعله واثقاً أنه يعرف كل شيء.. ويستحق أن يكون المسيطر على كل شيء.. تلك هي القوامة بمفهومه، نعم كان عليَّ أن أبقى مغفَّلة، حتى وإن لم أعد كذلك، فأنا في نظره دائماً لا أفهم شيئاً، بل لعلَّه يتعمَّد أن يخالف آرائي - هذا إن كان لي رأي أصلاً - فقط ليدعِّم ثقته بنفسه أنه هو الصحُّ دوماً ولا أحد غيره مثله، ولأنني فهمته جيداً فأنا معه دائماً أتظاهر بالتغفُّل.. إلا في الطبخ والتنظيف وتربية الأولاد.. فلا أحد يسبقني أبداً.

تربَّيت.. فهمت معنى اللبن الأسود، أصبحت تلك المخدَّرة في بيت زوجها بعد أن حوَّلته إلى جنة بذوقها وحسن تدبيرها، وقد أنامت أطفالها، وحضَّرت العشاء وهي تنتظر عودة زوجها بعد أكثر من منتصف الليل.. وقد سهر وسمر.. وراح وغدا، لا أدري أين..؟ ولا أدري مع من..؟ وليس عليَّ أن أدري.. ما أدريه أنني أنتظره.. وأنه محور عالمي، وأن حياتي بدونه خراب، وأنني لولاه لكنت قابعة في بيت أهلي والناس تنظر إليَّ بشفقة أنني بلا زوج، لذا.. عليَّ أن أنتظره، وأنتظر أيامي التي تتوالى وليس فيها من جديد..

تقويم يذهب.. وآخر يأتي ولا يخطر ببالي أن أقرأ ما فيه من أرقام أو أيام لأن أوراقه كلها متشابهة عندي.

قابعة في المنزل، محاصرة الخطوات، معدودة الزيارات، أشتاق أن أشمَّ هواء خارج بيتي، فقد اصطبغ هواء بيتي بالملل.. وكأن ذرات الأكسجين تأبى الدخول إليه مهما فتحت لها النافذة.. هذه النافذة الوحيدة التي تركها لي من العالم الخارجي، ولولا خشيته من حمل ذنب إزهاق نفس لأغلقها عليَّ وأراح شكوك نفسه التي لا تخبو أبداً، سئمته.. أشتاق أن أرى وجوهاً غير وجهه.. دائماً مسترقة السمع والنظر لما حول جدراني، حفظت موعد فتح كل بقالية أو دكان في شارعي،

حفظت وقع خطوات كل جار أو جارة لي في البناء، أعلم جيداً كل جارة ماذا تطبخ اليوم، فقد استثار فيَّ حواس الشمِّ والنظر والسمع، أحفظ وقع زخَّات المطر على كل الأبنية والأسطحة من حولي، أتأملها من زاوية النافذة.. أحدِّق في مداخنها.. تنفث الدخان الأسود بلا انقطاع، أتمنى لو أحتضنه.. لو أمنعه عن الصراخ في وجه السماء، فهو لا يرعوي عن الزفير الحانق حتى تحت المطر.. تحت الثلج.. يلوِّث صفاء المطر وبياض الثلج، كيف أمنعه عن تلك المداخن..؟!

آه.. كم أشتاق أن أبلل بالمطر حتى التقاطر، أن أتجمَّد تحت الثلج، أريد التشرُّد.. كفاني إيواءً تحت سقف ملني ومللته، أريد أن أجرِّب كيف ينفث الناس الهواء فيخرج منه دخان أبيض، أريد أن أرسم على زجاج السيارات المغطَّى بالرطوبة، أريد أن أمشي وألوِّث حذائي بطين الشوارع، حتى لكأنني نسيت كيف أمشي.. كيف أحكي، مفرداتي ذاتها عن الطبخ والبيت والأولاد، حفظت وجوهاً تكررت عليَّ حتى ظننت أنها كل العالم، لقد تلبَّسني الملل حتى ملَّني، وتركني قطعة أثاث في المنزل لا تتغير، فقدت فهمي للمعاني، جهلت عمق الأشياء، بيت وزوج وأولاد.. أولاد وزوج وبيت، ليل يعقبه نهار... نهار يعقبه ليل..

كل هذا وأنا أنتظره... طوال النهار وأنا أنتظره،

حياتي أمضيتها وأنا أنتظره، فهو مهما شرَّق وغرَّب فمرجعه إليّ.. وإلى بيتي، لذا.. عليَّ أن أبقى تلك المغفَّلة التي لا تسأل عن أي شيء..

والآن... بعد سبعة عشر عاماً من لعبة العروس والعريس، وقد مرت الأيام فيها توائم متتالية، أجدني أقف أمام الأرجوحة التي ما زالت فتيَّة، أستذكر أياماً خلت، في تلك الدار التي ورثها أخي بكل ذكرياتها.. هنا كان لضحكتي ألف غنوة، كان لرائحة الياسمين ألف معنى، كانت عرائش العنب تحتويني.. تضمني.. تظللني من وهج السماء، كان بلاط الحديقة يأكل من نعال قدميَّ الحافيتين وأنا أجري عليه بجنون، هنا تزحلقت من الماء الذي كانت أمي ترشقه على بلاط الحديقة ومزروعاتها، فأكملت لي أمي مقطوعة البكاء بأن بللتني تحت خرطوم الماء وهي تضحك، ضفيرة شعري علقت يوماً على هذا المسمار العنيد المزروع في الجدار، فما عدت أستطيع الحراك، ضحك أخي.. ضحك حتى وقع على قفاه..!

ارتسمت ابتسامة على وجهي المتعب، هربت دمعة من عيني، هطلت على رأس حفيدتي، رفعت رأسها إليَّ وهي تقول : جدتي.. هزِّي لي الأرجوحة.

أطعتها وأنا أتأمَّل الأرجوحة، تروح وتأتي في نفس المسار، لم تحد عنه طوال هذه الأعوام، لم تغيِّر من

أزيزها، ما زال لها ألق، وما زالت تجذب الفتيات إليها وتأسرهنَّ بمسارها، يتماهرن عليها.. يتنافسن.. من تستطيع رفعها إلى أعلى أكثر، هنَّ لا يعلمن أنها مهما رفعتهن.. مهما حلَّقت بخيالاتهن، لكنها مكبلة في ذات المسار، من الذي كبَّلها..؟.. يقولون للحماية..!

ينزلن من الأرجوحة وفي أعينهنَّ شوق إليها، يهتفن ببراءة : لم نشبع بعد من الأرجوحة...!!

obeikandl.com